

تفسير ابن كثير

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة] تفرد به أحمد وإسناده حسن .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو يعلى بن منصور أخبرني محمد بن مسلم سمعت زياد النميري يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين فاختلف فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة] وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب العجائب الغربية بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابا في مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعب من طولته وتمامه وجماله فقال : ما لك تنظر إلي ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك فقال : إن الله ليعجب مني قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذته بعض قرابته في كفه وذهب به .

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله صلى الله عليه وسلم واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبته موسى بحضرة الملأ من بني إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرني بالذي حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نشدني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فعند ذلك خر موسى سجدا وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعها وداره فكان ذلك وقيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال

: ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فلتدعون علي وأدعو عليك فخرج موسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام : تدعو أو أدعو أنا فقال : بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى : أدعو ؟ قال : نعم فقال موسى : اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم فأوحى الله إليه أني قد فعلت فقال موسى : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال : اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا وقوله تعالى : { فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين } أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : { وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس } أي الذين لما رأوه في زينته { يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم } فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود [إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب] { لولا أن من الله علينا لخسف بنا } أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأننا وددنا أن نكون مثله { ويكأنه لا يفلح الكافرون } يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم : معناه ويكأن اعلم أن ولكن خفف فقيل ويكأن ودل فتح أن على حذف اعلم وهذا القول ضعفه ابن جرير والظاهر أنه قوي ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعي اصطلاحى والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة وقيل معناها ويكأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه وكان بمعنى أظن وأحتسب قال ابن جرير : وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر : .
(سألتاني الطلاق إذ رأتهني ... قل مالي قد جئتماني بنكر) .
(ويكأن من يكن له نشب يحب ... ومن يفتقر يعيش عيش ضر)